

خصائص ومميزات الدراسات السوسولوجية الحضرية في الجزائر

Characteristics and advantages of urban sociological studies
in Algeriaتخريست سامية¹¹ جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، samia.takhriste@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2023/01/14 تاريخ القبول: 2023/02/15 تاريخ النشر: 2023/03/05

ملخص:

إن اتساع نطاق المدن في العصر الحاضر وازدياد حجم بعضها إلى درجة يمكن اعتبارها ظاهرة جديدة جعل عددا كبيرا من المهتمين بالحياة الحضرية من منظور الدراسات العلمية التي تقع في نطاق علم الاجتماع يحاولون تصور مشاكل هذه التجمعات الحضرية الكبرى من أجل الوصول إلى سياسات يمكن أن تطبق بنجاح في معالجة هذه المشاكل.

وقد عرفت الجزائر عديد الأزمات الاجتماعية والاقتصادية بعد عملية التحضر غير المسبوق الذي شهدته غداة الاستقلال وبعد السنوات الأولى للاستقلال شهدت المدينة الجزائرية معدلات نمو حضرية مرتفعة وهجرة مكثفة من الأرياف باتجاه المدن بحثا عن العمل والسكن، بمعنى تغير في المورفولوجية المادية والاجتماعية للمدينة الجزائرية والمشكلات التي صاحبت عملية النمو الحضري السريعة، كانت وراء ظهور العديد من الدراسات الأكاديمية التي اتخذت من مخلفات النمو الحضري أساسا تقيم عليه بحوثها، محاولة وصف وتحليل المشكلات التي ارتبطت بتطور المجتمع الجزائري وبالتنمية الاجتماعية والاقتصادية وإحياء الثقافة والهوية ودراسة مختلف النظم الاجتماعية، ومن أنماط التفاعلات والعادات. سنعمل في هذا المقال على إبراز أهم خصائص ومميزات هذه الدراسات.

الكلمات المفتاحية: السوسولوجيا؛ الدراسات الحضرية؛ المدينة؛ المدينة؛ التحضر.

Abstract:

The expansion of cities in the present era and the increase in the size of some of them to a degree that can be considered a new phenomenon has made a large number of those interested in urban life from the perspective of scientific studies that fall within the scope of sociology trying to visualize the problems of these major urban agglomerations in order to reach policies that can be applied successfully in address these problems.

Algeria has known many social and economic crises after the unprecedented urbanization process that it witnessed in the aftermath of independence and after the first years of independence, the Algerian city witnessed high urban growth rates and intense migration from the countryside towards the cities in search of work and housing, in the sense of a change in the physical and social morphology of the Algerian city and the problems that accompanied it. The rapid urban growth process was behind the emergence of many academic studies that took the remnants of urban growth as a basis for its research, trying to describe and analyze the problems associated with the development of Algerian society, social and economic development, the revival of culture and identity, and the study of various social systems, patterns of interactions and customs.

Keywords: sociology; urban studies; City; civil ; urbanization.

*المؤلف المرسل: تخریست سامیه

مقدمة

اعتمدت معظم الدراسات السوسولوجية الحضرية في الجزائر على التوجهات الحضرية للمدارس الغربية الكبرى في تدعيم بحوثها لأهميتها في دعم الإطار النظري والمنهجي لهذه الدراسات. و في محاولة إحداث وثبة معرفية حقيقية في علم الاجتماع في الجزائر وتفعيل دور العلوم الاجتماعية عامة، ظهرت رغبة لدى الباحثين الجزائريين في خلق أدوات ووحدات تحليل تمكن من استقراء الواقع المعاش لأساليب الممارسات الاجتماعية في الحياة اليومية لدى الفرد الجزائري، ويظهر هذا

من خلال اللقاءات والدوريات والندوات التي باتت تناقش عوائق تقدم السوسيولوجيا في الجزائر وضرورة إرساء دعائم فكر خاص ومتميز مع خصوصية المجتمع الجزائري مع - مراحل تطوره، لذلك سنعمل في هذا المقال على تحديد خصوصيات الدراسات السوسيولوجية الحضرية في الجزائر والتركيز على المؤشرات التي توحى بإمكانية تأسيس سوسيولوجية حضرية تعبر على خصوصية المجتمع الجزائري .

1. الظاهرة الحضرية في التراث السوسيولوجي

لقد حظيت الظاهرة الحضرية باهتمام بالغ الأهمية من طرف الرواد الأوائل لعلم الاجتماع الذين جعلوا من إشكالية التحضر والحضرية وما يرتبط بهما من إشكاليات أحد المواضيع الأساسية التي اشتغلوا عليها، ومن خلال المجال الحضري وما يزر به من تفاعلات باعتباره مختبرا غنيا بالظواهر الاجتماعية، استطاع علماء اجتماع القرنين 18 و 19 (ماركس-دور كلیم-ماكس فيبر - زيمل ورواد مدرسة شيكاغو الأوائل...) صياغة مفاهيم وبناء قوانين نظرية واختيار فرضيات سوسيولوجية ومن أجل فهم كل النتائج المترتبة عن التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية التي عرفت مجتمعاتهم إبان المرحلة التاريخية، التي عايشوها ومن أجل فهم كذلك العديد من الظواهر والأفعال الاجتماعية والسلوكات الفردية داخل الوسط الحضري

كما يعد المفكر العربي ابن خلدون من أوائل المفكرين الذين اهتموا بدراسة ظاهرة النمو الحضري، فاهتم في مقدمته الشهيرة بمعالم نشأة المدن والظواهر المرتبطة بها، وكتب في هذا الموضوع بشيء من التفضيل في الباب الرابع الذي كان عنوانه (في بلدان والأمصار وسائر العمران، وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه سوابق ولواحق. اما في التراث السوسيولوجي الحضري الغربي نلاحظ انه كان هناك اهتماما من طرف رواد علم الاجتماع الأوائل بالظاهرة الحضرية وذلك لعدة عوامل

أهمها: طبيعة المرحلة التاريخية التي زامنوها والتي عرفت جملة من التحولات الكبيرة في تاريخ مجتمعاتهم إبان الثورات التي عرفتها أوروبا آنذاك، بداية من الثورة السياسية (فرنسا) والثورة الفكرية الثقافية ألمانيا إلى الثورة الصناعية (إنجلترا)، وقد كان من نتائج هذه الأخيرة حدوث العديد من التحولات كانت المدينة مسرحاً لها حيث تغيرت أنماط الحياة وتضخمت المدن وانتشرت حركة تمدين وصاحبها انتشار حركة تصنيع كبرى وبرز ظواهر اجتماعية جديدة بالمدن وارتفاع نسبة الهجرة كل هذه التغيرات والتحولات كانت من بين الأسباب التي جعلت رواد علم الاجتماع الأوائل يوجهون اهتمامهم بالظاهرة الحضرية آنذاك. (بن خلدون، 1967، ص 47)

1.1. كارل ماركس والتحليل المادي التاريخي للظاهرة الحضرية :

في تناولهما لأهم المراحل الكبرى التي مرت بها المجتمعات البشرية في تطورها التاريخي حول كل من كارل ماركس وفريدريك إنجلز من خلال تحليلهما المادي التاريخي والمادي الجدلي لتطور أنماط الإنتاج في المراحل الخمس، التطرق إلى مسألة العلاقة بين المدينة والبادية إدماجهما للبعد الحضري لدراستهما لأهم التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها أوروبا في بداية القرن 19. (غيث، 1994، ص 134)

وقبل ماركس نجد في هذا الإطار مساهمة ف.إنجلز (1820-1895) خاصة في كتابه "حالة الطبقات العامة في إنجلترا" والذي خصص فيه فصلاً للمدينة عنونها بـ "المدن الكبرى" وتحدث فيه عن المشاكل التي صاحبت ارتفاع وتيرة التحضر، كما تطرق إلى مسأل النمو الحضري العشوائي الناجم عن الطريقة تخفي بها البلدان المتقدمة والمصنعة الوجه الآخر لتقدمها الصناعي، وتطرق فيه كذلك إلى أزمة السكن وانتشار الأحياء الهامشية المجاورة للأحياء الراقية ووجه انتقاداً لاذعاً للتطور الرأسمالي في بعض المدن الكبرى (لندن)، واعتبر أن أزمة السكن الانشغال الذي تتعرض له الفئات المقصية اجتماعياً القاطنة بالأحياء الهامشية هو مؤشر أساسي

للإحتكار والاستغلال الرأسمالي... وبذلك فإن أحسن وسيلة للقضاء على هذه الأزمة هي القضاء بشكل نهائي على الاحتكار والاستغلال الذي تمارسه الطبقة الرأسمالية على الطبقة العاملة.

و في كتابهما المعنون بـ "الإيديولوجيا الألمانية" نجد ماركس وإنجلز يتطرقان للمسألة الحضرية من خلال حديثهما عن ظاهرة تقسيم العمل التي فرقت بين المدينة والبادية "إن تقسيم العمل داخل أمة ما يفترض" أولاً تقسيم العمل إلى عمل صناعي وتجاري من جهة وعمل فلاح من جهة أخرى، ومن ثم التفريق بين البادية والمدينة وتعارض مصالحهما. (غيث، ص ص 33-34)

2.1. المدينة عند إيميل دوركايم كمجتمع التضامن الحضري:

رغم كون الأب الروحي للسوسيولوجيا لم يخلف لنا تعريفا محددا للمدينة فإنه تطرق للظاهرة الحضرية من خلال اهتمامه هو الآخر لمسألة تقسيم العمل في أطروحته التي تحمل عنوان "في تقسيم العمل الاجتماعي" وفي هذا الكتاب إلتقى دوركايم بالمدينة وذلك من خلال سعيه تفسير عملية الانتقال من مجتمعات التضامن الآلي إلى مجتمعات التضامن العضوي، هذا الانتقال يحث حسب دوركايم بالارتفاع التدريجي في الكثافة المادية (الديموغرافية) في المجتمع، والتي تترئ وتنتج بدورها ارتفاع الكثافة الروحية فيه، وأهم ما يميز البادية عن المدينة عند دوركايم هو سيادة التضامن الآلي المبني على التشابه على كافة المستويات (العقلية والمهنية) على أن البادية والمجتمعات التقليدية التي لا تعرف تقسيما للعمل أو تعرف التقسيم البسيط المبني على الجنس ولا يتمتع فيها بأية شخصية مستقلة لأنه يتشابه مع الآخرين، ويتصرف وفقا للأعراف والعادات السائدة والمتوارثة، إنها مجتمعات تجزئية أو مجتمعات للتضامن الآلي، تا الثانية، أي المدينة فيطغى عليها التضامن العضوي، القائم بين أفرادها المختلفون مع بعضهم البعض، لأن الفرد في المدينة رغم كونه يصبح أكثر حدية على المستوى الشخصي، فإن ظاهرة تقسيم

العمل تجعله في حاجة إلى الآخرين، ومن هنا فإن التضامن هنا يتم عن طريق الاختلاف وذلك ما يسميه دوركايم بالتضامن العضوي.

3.1. حياة المدينة عند جورج زيمل G.Simmel :

لقد كان زيمل أحد تلاميذ ماكس فيبر الذين اعترفوا بالمكانة الكبرى لأعماله ومع أن زيمل يتفق مع فيبر في بعض الآراء إلا أنه يعارضه في تصويره لنشأة المدن، كما أنه يرى أن الصور الحضرية لا توجد في العصر الحديث تشير إلى إمكانية ظهور حياة حضرية جديدة ومعقدة ويعتقد زيمل أيضا أنه يمكن وصف المدن بالاعتماد على النماذج المثالية، لكن عناصر هذا الوصف يجب أن تكون سيكولوجية أكثر منها بنائية، ذلك أن الإنسان في المدينة يشعر بأنه يعيش حالة ضياع نظرا لتعدد جوانب الحياة فيها هذه الحالة النفسية هي التي تجعل الناس يبتعدون عن الاستجابة العاطفية نتيجة لتعدد الحياة الحضرية، الأمر الذي أصبح معه العلاقات بين الإنسان وأقرانه وبيئته وبين البيئة عموما علاقات جزئية وانفصالية، وتعتبر البيروقراطية والإدارة واقتصاد السوق الميكانيزمات التي تلجأ إليها الحياة الحضرية لكي تواجه حالة التفكك النفسي هذه وهكذا يمكن القول أن زيمل انتهى إلى صورة للحياة الحضرية تشبه إلى حد كبير تلك الصورة التي قدمها فيبر لخصائص المدينة الحديثة، لكنه أي زيمل اعتقد أن سمات الحياة الحضرية اللاشخصية والاضطراب والبيروقراطية وانعدام المواجهة المباشرة والعمليات العقلية لاقتصاد السوق هي نتاج ظروف حضرية ذات طبيعة نفسية اجتماعية، بينما ذهب فيبر إلى أنها ظهرت بتأثير قوى اقتصادية وغير اقتصادية متضمنة في الرأسمالية.

و يعتقد زيمل أيضا أن الحياة في الحضر تزود الأفراد بميكانيزمات دفاعية "فعلى الفرد أن يحرر نفسه أو يفصل بين الروح والعقل"

إذ أن انعدام العاطفة و العلاقات الوظيفية في المدينة تمثل قوى دافعة للإنسان لكي يتحرر من دائرة الأفكار الروتينية ويحاول أن يعيش بعيدا عن هذه

الحالات النفسية، والواقع أن زيمل استطاع أن يصور جوانب كثيرة للحياة في المدن الحديثة وذلك بدلاً من الإغراق في الماضي أو تأمل المستقبل تأملاً يوتوبياً. (غيث، 1994، ص ص 38-40)

4.1. أسلوب حياة المدينة عند لويس ويرث :

من أهم رواد المدرسة الأمريكية، مدرسة شيكاغو -لويس ويرث- الذي يعرف المدينة في مقاله الكلاسيكي عن "التحضر كأسلوب للحياة" بأنها محل سكن دائم، كثيف وكبير نسبياً لأناس متقاربين اجتماعياً، ويترتب على هذه الخصائص الأساسية ملامح هامة يترتب عليها مثلاً:

اختفاء روابط القرابة والجوار والمشاعر التي تنشأ . من المعيشة فيها لأجيال عدة والتي تتميز بها الحياة في الريف أو على الأقل تضاول أهميتها وينتج عن هذه في رأيه أن تحل المنافسة محل التعاون وتختفي الضوابط التقليدية ويظهر بدلاً منها وسائل الضبط الرسمية.

وأيما كان نمط التعامل الذي يشيع في المدينة، فليس هو العلاقات الوثيقة التي تسمح للفرد أن يتعامل مع الآخرين كشخص كامل، وإنما في أدوار محدودة غير مرتبطة بالضرورة ومن ثم فإن الحياة في المدينة تؤدي إلى شيوع الفصام. (غريب، 2006، ص ص 46-47).

5.1. المدينة عند روبرت بارك :

إن الدفعة الحقيقية لعلم الاجتماع الحضري جاءت على يد روبرت بارك في مقاله "المدينة" الذي بشر فيه بأفق جديد، وقد جاء هذا المقال في المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع عام 1915 في الوقت الذي لم تكن المدينة قد نالت ما تستحقه من اهتمام علماء الاجتماع إلا بالقدر البسيط الاجتماع في حد ذاته لم يكن قد استقرت معالمه ووضحت تخصصاته.

و بعد عام 1925 بمثابة التحول في تاريخ هذا العلم إذ نشر روبرت بارك مقاله

السابق مع بعض الإضافات في كتاب صغير بعنوان "المدينة"، وفي العام الثاني نشر بالاشتراك مع صديقه أرنست برجس كتابا اشتمل على عدد من المقالات حمل اسم "المجتمع الحضري"

لقد قرر بارك أن الحضرية تنتج طرقا جديدة للحياة ونماذج جديدة من الأفراد، وأن علماء الاجتماع أن يكتشفوا هذه الأشكال الجديدة من مدهم بنفس الطريقة التي درس بها علماء الأنثروبولوجيا القبائل البدائية. (الجولاني، 1997، ص 45)

هذا وتظهر ضخامة الانتاجات السوسيولوجية التي ألفها بارك حول مجموعة من الظواهر الحضرية كالهجرة والتفكك العائلي والسكان المشردون وعصابات الأحداث المجنحين والخيتم والانتحار ومناطق السكن الفقيرة والغنية ومناطق الجنوح القوي والصراعات الإثنية .

كل هذه الظواهر الاجتماعية التي صاحبت التوسع الحضري الذي عرفته مدينة شيكاغو بفعل التوسع الحضري تطرق إليها بارك بالدراسة والتحليل وفق منظور إيكولوجي ينطلق من تفسيره لها من التفاعل الحاصل بين المجال الحضري بكل ما يزخر به من خصوصيات وأنماط وقيم وبين الإنسان وما من مواقف وتمثلات.

انطلاقا من الايكولوجيا الانسانية، اعتبر بارك أن دراسة الإنسان ينبغي التفاعلات بينه وبين الوسط الطبيعي والجغرافي الذي ينتمي إليه، معتبرا بذلك المدينة الإيكولوجي مجالا غنيا بالتفاعلات والديناميكيات الاجتماعية، أو بلغة بارك نفسها أن المدينة هي مختبر اجتماعي لتحليل وفهم كل الظواهر الحضرية.

وم في إطار حديث بارك على ظاهرة الهجرة الإنسانية والتحضر، اعتبر أن هجرة الفلاح إلى المدينة هي ظاهرة تاريخية وعملية دائمة لا يمكنها أن تتوقف ولكنها تتحول مشكلة اجتماعية عندما يتم السعي إلى حلها عن طريق الادماج الحضري أو ما

يسميه بارك بعملية الانصهار، لأن الثقافة التي يحملها المهاجر القروي التي تتميز بهيمنة الأعراف والتقاليد الجامدة عليها، تختلف عن الثقافة الحضرية التي تتميز بسيادة الفردانية والرأي العام والقانون الوضعي.

هكذا يمكن القول بأن أهم ما ميز بارك في دراسته لكل الظواهر الاجتماعية الحضرية هو هيمنة البعد والإيكولوجي عليه في تناوله لهذه الظواهر، معتبرا المدينة بحالاً خصبا ومختبرا اجتماعيا لدراساتها، وقد قال بارك مخاطبا طلابه "أرجعوا كل علاقة اجتماعية إلى علاقة محالية، وعندئذ يمكنكم أن تطبقوا على العلاقات بين الناس المنطق الأساسي للعلوم الفيزيائية. (عبد العاطي، 2006، ص 15).

2. المدينة الجزائرية وظاهرة التحضر

لقد مر المجتمع الجزائري عبر تاريخه بتحولات عميقة مست مجتمعيه المحليين الريفى والحضري بداية من عهد الاحتلال إلى الاستقلال، بمرحلة التنمية والتصنيع والتحويلات السياسية والاتجاه نحو نظام ليبرالي يخضع لآليات السوق ويتربع نحو الفردية، ما أدى إلى إحداث تغيرات اجتماعية كبيرة (هجرات، آفات اجتماعية، تغير سلم القيم، تراجع العلاقات التقليدية)، إضافة إلى العشوائيات الحضرية وتغير مورفولوجية المدن الجزائرية... وغيرها من المشكلات التي باتت تؤرق السكان والهيئات الرسمية على حد سواء. (بودقة، 2003، ص 174)

هذا الوضع استلزم مخططات وتوجيهات تنموية مستعجلة، لم تستطع إلى حد بعيد تحقيق الهدف المنشود بفعل التزايد الديمغرافي الكبير وعدم توافر الامكانيات والموارد المتاحة، وأصبح صعب التحكم في هذا النمو السكاني، خاصة مع عدم اكتمال الكثير من البرامج والمشاريع المسطرة فالجزائر تحقق نسب نمو ما بين 3.5 و4 في المائة مقابل ضخ ما بين 10 و12 في المائة من الناتج المحلي الخام سنويا، أي أن الأثر المضاعف غير متاح لاقتصاد لا يزال ريعيا بامتياز.

1.2. الواقع السكاني والعمراني لمدينة الجزائر مع بداية التحضر:

التحولات الوظيفية والديمغرافية السريعة التي تزامنت شدتها استعادة مدينة الجزائر لوظيفتها كعاصمة وطنية علم 1962، كان شأنها إحداث نمو عمراني غير مسبوق، أدت هذه من التحولات إلى خلق ديناميكية كان من شأنها إحداث تغير شامل وعميق في بنية المدينة وتوسع كتلتها الحضرية، بامتدادها في مختلف الاتجاهات، هذا النمو هو في الواقع نتيجة السياسة العمرانية التي تبنتها السلطة العمومية منذ العشرية الأولى التي أعقبت الاستقلال بهدف تطوير وتنمية العاصمة لتصبح قطبا رئيسيا في البلاد.

شرع في إقامة المنشآت والمؤسسات المهيكلية المحال، ذات البعد الدولي كقصر الأمم، قو المركب الرياضي وفندق الأوراسي في سنوات السبعينيات ورياض الفتح وحديقة التسلية بين عكنون في مطلع الثمانينات، وغيرها من المؤسسات والمرافق والتجهيزات الحضرية فيما بعد، كما تم تطوير وتوسيع المنطقة الصناعية رغبة-روبية القطب الصناعي الرئيسي في البلاد، التي تزيد مساحتها حاليا عن 1000 هكتار عدا المناطق الصناعية الأخرى بواد سمار بمساحة تصل إلى 400 هكتار جسر قسنطينة بمساحة 180 هكتار، الحراش بمساحة 78 هكتار.

(<http://digiurbs.blogspot.com>)

كان لهذه الهياكل الصناعية إلى جانب الهياكل الحضرية الأخرى دورا أساسيا في تطور بنية مدينة الجزائر، مما أدى إلى استقطاب المدينة لليد العاملة من أحواض الشغل بالريف والمناطق المجاورة وإلى قيام السلطة العمومية بإنشاء مناطق السكن الحضري الجديدة "ZHUN" في باب الزوار قاريدي بالقبة، عين النعجة والرغبة وغيرها، مما زاد من وتيرة الامتداد العمراني تغيرات هيكلية ومجالية معتبرة.

اتسعت في الآونة الأخيرة ضاحية الجزائر العاصمة بإقامة التجزئات السكنية "lotissements" السكن غير المنظم بمختلف أنماطه (السكن الهش، السكن الفوضوي بدون ترخيص، السكن القصديري، ولكن أُلْم تترك هذه التحولات

المجالية الاجتماعية والتحويلات الديمغرافية في بيئة المدينة، آثارها وانعكاساتها في ميدان التنظيم الحضري، والسير الوظيفي للعاصمة، لا سيما صعوبة السكن وارتفاع أسعاره شراء وكراء وعدم تنظيم العقارية وصعوبة الحركة "mobilité" وتفاقم أزمة النقل والتنقل بالمدينة؟

2.2. المدينة الجزائرية والتغير الاجتماعي :

يذهب كل من "جيرث" و"ميلز" إلى أن التغير الاجتماعي هو التحول الذي يطرأ على الأدوار الاجتماعية التي يقوم بها الأفراد، وكل ما يطرأ على النظم الاجتماعية، وقواعد الضبط الاجتماعي في مدة زمنية معينة.

يتفق "جتر برج" مع هذا الطرح، حيث يرى بأن التغير الاجتماعي هو كل تغير يطرأ على البناء الاجتماعي في الكل والجزء وفي شكل النظام الاجتماعي، ولذلك فإن الأفراد يمارسون أدوار اجتماعية مختلفة عن تلك التي كانوا يمارسونها خلال حقبة من الزمن. (بوعطيط، <https://sites.google.com>)

التنمية المحلية صاحبت معها تغيرات اجتماعية، وهذه التغيرات أثرت على حياة الأفراد وعلاقاتهم ببعضهم البعض، ومن بين هذه العلاقات علاقات الجيرة التي أصبحت شبه مفقودة اليوم فيرى الدكتور ثائر محفوظ أن المجتمعات العربية كانت في الماضي ولأزمنة طويلة مجتمعات إنسانية بسيطة، بعيدة كل البعد عن تعقيدات الحياة اليومية، وهذا ما أدى إلى تمتين أواصر المعرفة والتداخل بين المجموعات المختلفة في كثير المناطق، وازدادت حينها أهمية الجيرة وأصبحت من أسعى القيم الاجتماعية، حيث أن الجيران كانوا في الماضي يعيشون في مناطقهم وكأنهم أهل من عشيرة واحدة، وبات كل منهم يشارك الآخرين في الأفراح والأقراح لدرجة أن الأحياء كانت تسهم بشكل مباشر في قيام الكثير من العلاقات، والحياة العصرية بكل تعقيداتها والتي تتسم بسرعة وتيرة وضغوط العمل وظروف الحياة والمعيشة الصعبة التي فرضت على الجميع عدم القدرة على التواصل مع الجيران وأن

العلاقات الاجتماعية أصبحت مكلفة أكثر من ذي قبل كما أن من نتائج التحول العمراني والحضاري في الجزائر هو تغير نمط أو نظام الأسرة سواء في بنيتها الشكلية أي من الأسرة الممتدة أو المركبة إلى الأسرة الزوجية أو الثورية، وكذا على مستوى الوظائف والعلاقات الأسرية التي أصابها الكثير من التغير، حيث أصبحت العلاقات مبنية على المصلحة المادية التي يحكمها العمل المأجور المحدد بالزمان والمكان، دون اعتبار للجنس أو السلالة أو القرابة وغيرها.

من جهة أخرى، إن ثورة الاتصالات التي حولت العالم إلى قرية صغيرة لم يعدها المجتمع الجزائري التي لا تسير العادات والتقاليد المجتمعية سواء الدينية أو العرفية وفي المقابل أدت إلى غياب المفاهيم الهامة مثل الإنتماء والهوية والقومية والالتزام داخل المجتمع، إن هذا الانهيار في المجتمع يصاحبه كذلك التفكك الذي يؤدي إلى اللاتوازن الناتج عن غياب سلطة الضبط القائمة داخل الأسرة. (بومعالي، 2011، ص 214)

كما أن التغير الأسري يتغير بالتغير الاقتصادي الذي نلاحظه من خلال التتبع في سيرورة التغير الأسري، حيث نجد أنه تلازمت الأسرة الأبوية مع النظام الزراعي في الفترة الأولى، وتلازمت الأسرة الزوجية مع التصنيع والعمل المأجور في الفترة الثانية، وتلازمت الأسرة كرابطة بمساهمة الزوجين في الاقتصاد الأسري مع تطور القطاع الثالث في الفترة الأخيرة، وهكذا يوجد في كل فترة توافق بين نمط أسري ونمط اقتصادي.

كما أن من عوامل تغير البنية الأسرية هو خروج المرأة للعمل لمجموعة من الدوافع منها غلاء المعيشة ولوازم الحياة الضرورية، كما أن مشاركتها في الحياة هو التفتح والمطالبة بالحقوق فالسلوكيات والعادات التي تغيرت بفعل الإعلام والتحضر ساعدت على انتشار الوعي والإدراك الموقع من طرف المرأة. كما أن من المظاهر السلبية للتغير الاجتماعي في الجزائر تزايد مستوى العنف والجريمة خاصة

في السنوات الأخيرة، فنمو المدينة الجزائرية صاحبه عدم القدرة على استيعاب هذه الطاقة المتزايدة، ما فجر في المجتمع عدة أزمات اجتماعية.

هناك من أوعز انتشار ظاهرة العنف في المجتمع إلى النمو العمراني الحضري الذي يتميز بالتغير الثقافي السريع، وازدياد نسبة المهاجرين من الريف إلى المدينة، واختلاف الثقافة الفرعية بل الثقافة الكلية وانتشار العلاقات غير الوثيقة التي لا تشعر الأفراد بالطمأنينة وراحة البال وم سيادة المعايير الخلقية المتضاربة، الأمر الذي يؤدي إلى وجود حالة من الفوضى التي تسمى باللامعيارية. (سلاطينية، 2008، ص 145)

تشير الأرقام والاحصائيات المتوفرة حول تطور الجريمة بالمجتمع الجزائري إلى التنامي المتصاعد للظاهرة، ولو أن هذه الاحصائيات تبقى بعيدة عن مصادرها الرسمية، فيما تتنوع ظواهر العنف والفعل الإحرامي من الإدمان الذي يعرف انتشارا واسع داخل المجتمع الجزائري خلال السنوات الأخيرة، وكذا ظاهرة الانتحار التي تعرف تزايدا مستمرا حسب الدراسات الاجتماعية التي أجريت في هذا الصدد إلى جانب الإغتصاب الذي اعتبر كظاهرة غريبة عن المجتمع خاصة خلال العشرية السوداء التي سجلت اغتصاب أكثر من 7000 امرأة حسب دراسة قامت بها الجمعية الوطنية للتضامن مع المرأة الريفية، كما يضاف إلى هذه الجرائم ما يعرف بالجريمة المنظمة وعصابات المافيا. الجدير بالذكر أن الأخصائيين في علم الاجتماع يرجعون هذا التطور في الجريمة داخل المجتمعات إلى عوامل عديدة منها التفكك الأسري.

التأثير السلبي لوسائل الإعلام والاتصال على التقاليد والقيم الاجتماعية والأخلاقية الأصلية إلى جانب الفقر والبطالة المتفشية داخل المجتمع، وكذا ما تفرضه العولمة كعامل أساسي وعام من تأثير في تطور الجريمة داخل المجتمعات. (بوزغاية، 2015، ص 324).

هذا ما جعل هذه المواضيع محل اهتمام المختص في علم الاجتماع الحضري في

الجامعة الجزائرية وتظهر خصائص هذه الدراسات من خلال مختلف الندوات والملتقيات المنظمة في هذا الاطار لعرض نتائج الدراسات , وبعد البقراءة المتأنية والاطلاع على فحوى هذه الدراسات يمكن القول ان اهم المميزات تتمثل في ما يلي:

- يتغير اتجاه الدراسات الحضرية الأكاديمية وفق تغير البنى المادية والاجتماعية للمدينة بعيدا عن التبعية والنمطية في تقديم بحوثها من ناحية الموضوع والمنهج.
- هناك بوادر ظهور فكر اجتماع حضري متميز في الجزائر يغنيها عن النظريات الغربية ويعبر عن واقع المدينة الجزائرية ووجودها المادي والاجتماعي.

إن اعتماد الدراسات الجامعية عامة والحضرية بصفة خاصة على المفاهيم والنظريات الغربية لضرورة حتمية وجدها باحثونا كقوالب جاهزة يعتمد عليها في دراسة وتحليل وتفسير الواقع الاجتماعي الجزائري، وتسارع وتعاقب الأحداث الاجتماعية دفعت باحثينا إلى طرح المشكلات والقضايا التي يمر بها مجتمعنا وفق خطاب علمي هيمن عليه تأثر كبير بالنظرية الغربية، وعدم الأخذ بعين الاعتبار لخصوصية المجتمع الجزائري بتاريخه ودينه وعاداته وتقاليده، وتوظيف هذه النظريات بصفة آلية لتدعيم البحوث الأكاديمية.

رغم أهمية هذه النظريات إلا أن الإستعانة بها دون نقدها لما تحتويه من نقائص وتناقضات في بعض الأحيان قد يجعل تحليل وتشخيص الباحث الجزائري للظاهرة محل دراسته غير مكتمل وغير دقيق وبعيد كل البعد عن واقع المجتمع المدروس، فبالنسبة لـ بورديو فإن "النظريات السوسيولوجية المؤسسة على التمرکز الغربي في حاجة ماسة إلى التفكيك النقدي"ن وقد ظهر موقفه إتجاه الجهاز النظري للبنوية الذي طبقه علماء الأنثوغرافيا وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا الفرنسيين على مجتمعات العالم الثالث المختلفة من حيث التاريخ والثقافة والمعتقدات فقال : "إن خطأ البنوية هو أنها كانت تنظر إلى الحوادث من خلال الملاحظين بدلاً من النظر إليها من خلال عيون السكان الأهالي"، كما يرى بورديو

ويحتاج في هذا السياق "أنه لا ينبغي فرض النظرية التي انبثقت من بيئة ثقافية معينة ومغايرة على بيئة أخرى لها وضعها وشروطها المختلفة على واقع متميز ومختلف".

لكن عكس ذلك، فإنه لم يخلو أي بحث أو دراسة لمدينة الجزائرية أو المجتمع الجزائري من توظيف النظريات الغربية في تحليل تفسير ما تمر مجتمعاتنا المحلية من تغيرات في البني المادية والاجتماعية، ولم تخلو أي دراسة من وجود إسم من رواد هذه المدارس (الفرنسية، الألمانية، الأمريكية) خاصة، فعدم وجود نظريات عربية خاصة بمجتمعاتنا، ومتميزة بتميز حضارتنا وتاريخنا وقيمنا، كانت الضرورة ملحة للبحث عن البديل لإكمال مشروع أي بحث في الحقل السوسولوجي، وفي هذا الصدد يقول أكرم حجازي "ليست النظرية من كماليات البحث العلمي بقدر ما هي ضرورة ملحة للباحث الاجتماعي، لذا فالدعوة إلى التخلي عنها أو التقليل من أهميتها يجب مواجهتها بالرفض التام حتى لا يحرم الباحث من الأرضية الرئيسية لتأسيس بحثه"، فالنظرية حسبه تمثل نمطاً لبناء المعرفة العلمية وضرورة لكل ملاحظتنا وأنها الشرط الضروري لانطلاق التفسير والتحليل حتى وإن كانت غير كافية.

إن تعاقب الأحداث بشكل متسارع وتغير خصائص وبنية المجتمع الجزائري جراء عمليات التنمية وتغير اتجاه العلاقات الاجتماعية، وما مرت به البلاد من كوارث طبيعية وصدمات اجتماعية قد أثرت على مورفولوجية المدينة الجزائرية وعلاقات أفرادها الاجتماعية، ومفرزات هذا التغير في البنى قد لمسناه في مواضيع عينة البحوث الأكاديمية التي كانت محل دراستنا، فمن جهة لاحظنا زيادة اعتماد جل البحوث على النظريات الغربية في تفسير واقعنا ومعالجة قضايا مجتمعنا أنها اعتمدت على نفس المناهج والتقنيات، متمثلة خاصة في المنهج الكمي الذي ميز معظم الدراسات الأكاديمية، غير أن توظيف هذه المقاربات النظرية والمناهج كان وفق ما تطلبت دراسة كل باحث على حسب موضوعه، فرغم تشابه الكثير من

المواضيع إلا أنه ظهرت الكثير من الاستثناءات في بحوث السنوات الأخيرة من حيث طريقة تقديم المواضيع، وأصبحت أكثر خصوصية وأكثر دقة في طرح قضايا المجتمع المحلي والبحث أكثر في هويته وقيمه عاداته سلوكيات أفرادها والبحث في اللغة واللهجات حتى ذهب بعض الباحثين في الحقل السوسيولوجي إلى تحليل الفعل الاجتماعي من خلال بعض الممارسات، كالكتابة على الجدران ومعاني بعض المصطلحات العامة وحتى الأكلات الشعبية التي تندرج ضمن مميزات وحضارة المجتمع الجزائري بشكل خاص. و ما يجب أن ننوه له هو الفرق بين البحوث الأكاديمية التي يقدمها الطلبة، والتي لا تتعدى النسق الجامعي وبين الأبحاث التي يقدمها المشتغلون في الحقل السوسيولوجي من أساتذة وباحثين، حيث نجد أن المذكرات والرسائل تتشابه إلى حد كبير من حيث الشكل والمضمون، حتى أن بعض البحوث تكاد تعيد نفسها مع وجود تغييرات طفيفة. (دليو، 2004، ص 36)

لكن ما نصبوا إليه، هو تلك الأبحاث الاجتماعية التي لا تناقش في المنتديات والملتقيات العلمية من قبل أساتذة ودكاترة وباحثين في علم الاجتماع، والتي نجد أنها أقرب إلى تشخيص الواقع الاجتماعي العربي والجزائري بصفة خاصة، وهذا ما لاحظته خلال تفحصي لمحمل الدراسات (رسائل، أطروحات، منشورات)، والكثير ما جاء في المؤتمرات والملتقيات الوطنية والدولية في مجال علم الاجتماع بصفة عامة. ومن خلال عرض أهم الدراسات التي اهتمت بالمساءلة الاستمولوجية في حقل علم الاجتماع، وجدنا أن بعض الأبحاث في السنوات الأخيرة قد بدأت تسلط الضوء على مكان الخلل في السياسات التنموية المتبعة والتي تؤثر بشكل واضح على البني المادية والاجتماعية للمدينة الجزائرية من جهة، ومن جهة أخرى محاولة النهوض بأداء النشاط العلمي في حقل علم الاجتماع سواء على المستوى الأكاديمي أو على مستوى الأبحاث التي تقدم من طرف المختصين في الحقل السوسيولوجي. ورغم صعوبة الخروج من سيطرة المفاهيم والنظريات الغربية التي طبعت جل البحوث

الأكاديمية، إلا أنه وبفضل الكثير من الأساتذة والباحثين الأكفاء قد بدأت تظهر بوادر قيام علم اجتماع متميز بتميز مجتمعنا الجزائري من خلال الدخول إلى مرحلة المساءلة الاستمولوجية والبحث عن معيقات تقدم علم الاجتماع في بلادنا، والبحث عن حلول تساهم في ربط ما تقدمه هذه الأبحاث، وبين المشكلات الاجتماعية التي يفرزها واقعنا الاجتماعي، وتعتبر هذه الأبحاث واللقاءات والندوات مؤشرا لبداية ممارسة سوسيولوجية يمكن أن تغنيانا ولو لحد بسيط عن الاعتماد المفرط للنظريات الغربية أو ما يسميه بورديو "حالة التوافق التام" التي تؤدي إلى الممارسة الآلية وتخنق الإنتاج العلمي الأصيل. (فلاحي، 2015، ص 134).

رغم الكم الهائل للدراسات السوسيولوجية الحضرية من مذكرات ورسائل وأطروحات أكاديمية ورغم اهتمام الطلبة بالكثير من القضايا المجتمعية وطرحها كمواضيع معالجة لبحوثهم، إلا أن هناك إجماع على أن نقص الوسائل والإمكانات تحول دون ممارسة سوسيولوجية قادرة على تشخيص المشكلات الاجتماعية التي يتخبط فيها المجتمع الجزائري. (عياشي، 1996، ص 95)

الخاتمة

بالرغم أن الكثير من البحوث الأكاديمية فيما مضى قد تشابهت من حيث الشكل والمضمون، حيث كانت أغلبها دراسات وصفية لم ترق إلى مستوى التحليل والتفسير الدقيق للمشكلات الاجتماعية، فإنها في السنوات الأخيرة بدأ الخطاب السوسيولوجي يتغير بعد إدراك تام بأهمية التعمق في التحليل.

فرغم خصوصية المجتمع الجزائري واختلاف تشكيلاته الاجتماعية البعيدة كل البعد عن المجتمعات الغربية، فما شهدته الجزائر من تحولات عميقة وسريعة خاصة بعد استقلالها لم تشهده بلدان أخرى، فقد عرفت الجزائر استعمارا خلف بعد بنيات اقتصادية واجتماعية مدمرة، ثم سياسات تنموية وما انجر عنها من نمو ديمغرافي ونزوح وترييف للمدن وتغيرات في مرفولوجية المدن الجزائرية وتأثير في

العلاقات الاجتماعية، وما خلفته العشيرة السوداء والكوارث الطبيعية من فياضانات وزلازل، كل هذه الظروف لم تكن الدراسات السوسيولوجية الحضرية بمنأى عنها، فدرست إعادة تشكيل الطبقات الاجتماعية وانتقال التمركز الديمغرافي، وإعادة تشكيل الهويات وإعادة بناء العلاقات الاجتماعية في المجالات أو المراكز الحضرية الجديدة...، وغيرها من الدراسات التي تميزت بها البحوث الأكاديمية في الجزائر، مع انعدام وجود النظرية التي تختص بمدينتنا ومجتمعنا الجزائري، خاصة وأن من شروطها (النظرية) أن تكون متفردة، غير مكررة، وهذا ربما ما لم يساعد علماء الاجتماع في الجزائر. إن تعقد الأوضاع الاجتماعية في بلادنا من شأنها إنعاش وإثراء البحوث السوسيولوجية عامة والحضرية بصفة خاصة، كما يساهم في احتمال ظهور نخبة من الكفاءات تعبر عن هذه الأوضاع وتدفع إلى الممارسة الحقيقية التي تتمتع بشروط حل المشكلات والانشغالات ومفرزات الواقع الاجتماعي، يقول الكاتب اخواني أحمد عماد الدين أن تحول اهتمام السوسيولوجيين في نهاية التسعينيات من خلال طرح قضايا ابستمولوجية حول السوسيولوجيا التي يمارسونها ومحاولة مقارنة المجتمع الجزائري، من خلال مداخل مغايرة للمرحلة السابقة (كالمسألة الثقافية واللغوية، عالم الشغل المسألة الديمغرافية، مسألة إعادة تشكيل الهويات...)، إن هذا التحول مؤشر جيد على ميلاد سوسيولوجيا جزائرية متميزة في طرحها ومقاربتها للظاهرة المجتمعية الجزائرية، والتي تحاول أن التأسيس لتقاليد بنائية لممارسة مستقبلية مبدعة، وقد أجمع الباحثون والمشتغلون في الحقل السوسيولوجي على وجوب وجود فهم نقدي لأنظمة إنتاج المعرفة وفق المقاربات السوسيولوجية النقدية الحديثة حتى تحقق الجامعة الجزائرية أهدافها المنشودة، كما وجب التأكيد على ضرورة اهتمام جدي من قبل السياسي، بإقامة مراكز أبحاث تدعمها وترعاها الدولة باعتبارها المسؤولة على تسليط الضوء على الجوانب الاجتماعية والإقتصادية والتي تمكن من اكتشاف

طبيعة البني والتشكيلات القائمة، وتطرح مباشرة وسائل الإصلاح والتطوير للخروج من الأزمة، وليس بالمستحيل على النخبة في بلادنا خاصة في مجال علم الاجتماع تحقيق الهدف المنشود والمتمثل في صياغة نظريات تعبر عن خصوصية وتميز مجتمعنا الجزائري إذا توافرت كل الشروط التي تستلزم للباحث الجزائري في المجال العلمي امكانات معرفية ومادية، وهذا ليس ببعيد فالجزائر كما يقول عنها "بيير بورديو" مهد للنظريات الاجتماعية".

المراجع:

<http://www.m.alhewar.org2>

بشير طلحة، (2005)، البني التقليدية و علاقتها بالتقسيم الاجتماعي للمجال الحضري، مذكرة لنيل شهادة الماجستير قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر
ألبير نصري نادر، (1967)، من مقدمة ابن خلدون، دار المشرق بيروت..
محمد عاطف غيث، (د.س)، علم الاجتماع الحضري.

غريب محمد سيد احمد، (2006)، علم الاجتماع الحضري، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية
فايدة عمر الجولاني، (1997)، علم الاجتماع الحضري، مركز الاسكندرية للكتاب، الاسكندرية.

السيد عبد العاطي السيد، (2006)، علم الاجتماع الحضري، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية

[www://uobabylon.edu.iq](http://www.uobabylon.edu.iq)

فوزي بودقة، (د.س)، وجه مدينة الجزائر بجوانب من مسارها العمراني، مجلة انسانيات الجزائر.

إسماعيل بوزيدة: www.djazairiess.com

مدونة العمران، "السياسة العمرانية في الجزائر" <http://digiurbs.blogspot.com>

بوعطيط سفيان، (د.س)، التغير الاجتماعي في الجزائر و تأثيراته على القيم،

<http://sites.google.com>

http : //boussouira.ahlamontada.net، التغير الاجتماعي في الجزائر،

رشيد بومعالي، (د.س)، واقع التغيرات الأسرية للأسرة الريفية المهاجرة في الجزائر،

<http://sites.google.com>

بلقاسم سلاطنية، (2008) العنف و الفقر في المجتمع الجزائري، دار الفجر للنشر

و التوزيع، الجزائر.

الأحوال أمال، التحولات الانتقالية السريعة بالمجتمع الجزائري،

<http://www.djazairress.com>

مشنان فوزي، أهمية التخطيط الحضري للتنمية بالجزائر، مجلة العلوم

الاجتماعية، <http://www.swmsa.net>

بوزغاية باية، (2015)، توسع المجال الحضري و مشاريع التنمية المستدامة، مدينة

بسكرة نموذجاً، أطروحة مكملة لنيل شهادة دكتوراه، جامعة بسكرة.